ملامح التوحيد في مصر القديمة قبل عهد إخناتون

د.رحاب عبد المنعم باظة♦

نالت فكرة التوحيد في مصر القديمة اهتمام علماء المصريات الأجانب والمصريين على حد سواء. وتوصل العلماء إلى نتائج مختلفة لهذه الدراسة؛ فكان هناك فريقين: رأى الفريق الأول أن المصري القديم فطر على الوحدانية الخالصة وعبادة إله واحد دون التفكير في إله غيره وإن تعددت أشكال هذا الإله، وكان من أنصار هذا الرأي دي روجيه الذي رأى أن الخاصية الأولى للديانة المصرية هي وحدة الإله التي نعبر عنها بكل قوة فنقول: "الإله الواحد، الفرد، الصمد، لا شريك له، هو الكائن الأحد، الحي في الحقيقة..أنت الواحد، وملايين الكائنات انبثقت منك، خلق كل شيء وهو الوحيد الذي الذي لم لم يخلقه أحد...فكرة الإله الفرد الأول، هو الجوهر الواحد الدائم في كل مكان، موجود بذاته، إله لا يمكن الوصول إليه". أما بول بيريه فذكر أيضاً في سياق نفس هذا المعنى: "حيث تبدو الديانة المصرية متعددة الآلهة، لكنها كانت توحيدية بالضرورة ولا يمكن أن تكون غير ذلك.....وأن الإيمان بآلهة كثيرة كان أدواراً ووظائف للإله الأعلى المفرد الخفي الذي تحوي النصوص الدينية المصرية له العديد من الصفات التوحيدية الواضحة". وأيد هذا الرأي أيضاً أوجست ماريت الذي قال: "إن هناك إلهاً فرداً خالداً مخلوقاً بذاته، لا تدركه الأبصار، خفياً، مدخراً لأولئك الداخلين في قدس أقداسه". ووافقهم في هذا الرأي أيضاً هنري بروجش الذي أعلن: "إن المصريين في تلك العصور السحيقة عبدوا الإله الواحد المتعذر وصفه أوإدراكه، الأبدي في صفاته الأسمى".

أما الفريق الثاني فكانت آراؤه على النقيض تماماً فذكروا أن المصري القديم لم يهتد إلى الوحدانية إلا في عهد إخناتون بعد أن مر الفكر المصري القديم بمراحل تعدد الآلهة؛ وكان من هذا الفريق ماسبيرو الذي نقد آراء الفريق الأول بشدة قائلاً: "إن التوحيد كان ظاهرة ثانوية مشتقة من إيمان سابق بالآلهة المتعددة". أما واليس بادج فقدم رأياً ثالثاً فذكر: "إن الإله الواحد كان للحكماء ذوي العلم، أما التعدد فكان لعامة الشعب"[١]. أما عبد العزيز صالح فقدم دراسة عن الوحدانية في مصر القديمة[٢] طوال عصورها وتوصل

♦ دكتوراه في الآثار المصرية القديمة، كلية الآثار، جامعة القاهرة.

(١) إريك هورنونج: ديانة مصر الفرعونية: الوحدانية والتعدد، ترجمة: محمود ماهر طه ومصطفى أبو الخير، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٥م، ص ٨-٩.

(٢) عبد العزيز صالح: الوحدانية في مصر القديمة، المجلة ٣١ (يوليو ١٩٥٩)، ص ١١.

إلى أن المصري القديم أوشك أن يكون له إله واحد رسمي في عهد الدولة الحديثة هو (آمون) إلا أنه كانت هناك عدة أسباب حالت دون ذلك مما أدى لاستمرار التعددية في الديانة المصرية القديمة.

إذن هل هي وحدانية أو تعددية؟ كيف بدأت عقيدة المصري القديم؟ هل بدأت عقيدة المصري القديم بتعدد الآلهة حتى وصلت في عهد إخناتون إلى التوحيد؟ أم بدأت بالتوحيد ثم حدث تعددية بعد ذلك حتى جاء إخناتون فأحيا التوحيد مرة أخرى ودعا إليه؟ تلك هي القضية الكبرى التي كانت دائماً وأبداً مبحثاً للعلماء. وحيث أنه تعددت الآراء حول نتائج هذه الدراسات المتعددة لهذا الموضوع الهام في عقيدة المصري القديم لذا كانت هذه الدراسة.

إن جوهر الإجابة على هذا السؤال يتطلب التعرف أولاً على معنى التوحيد وماهيته وعناصره،فإذا كانت متوافقة مع ما ورد في عقيدة المصري القديم فقد آمن إذن بوجود إله واحد؛فالتوحيد هو جوهر الإيمان بالله تعالى،فإذا تحقق الإيمان بالله يكون قد تحقق التوحيد ضمناً،والتوحيد هو إفراد الله عز وجل بالربوبية والألوهية والأسماء والصفات.فالإيمان بالله عز وجل أي بالذات الغيبية العلوية المختارة القاهرة الجديرة بالطاعة والعبادة هو أصل العقائد كلها[٣]،كما أن أصل العقيدة ووحدة الدين واحدة منذ أرساها المولى عز وجل، وبدأها مع أول الأنبياء آدم عليه السلام ومن بعده مع الأنبياء والرسل جميعاً،قال تعالى:"إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (١٦٣) وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا (١٦٤) رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا "[٤].

لا يكتمل الإيمان بالله عز وجل إلا بتحقق عناصره؛ وتتمثل هذه العناصر في ستة أركان إذا توافرت في عقيدة أي أمة أصبحت هذه الأمة مؤمنة موحدة بالله عز وجل، وهذه الأركان الستة هي الأصول التي بعث بها الرسل عليهم السلام جميعاً، ونزلت بها الكتب السماوية فلا يتم إيمان فرد إلا إذا آمن بهم جميعاً[٥]، قال تعالى: "لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ..... "[٦]. في حين يوضح الحديث الصحيح للرسول صلى الله عليه وسلم حين

---

(٣) يوسف القرضاوي: حقيقة التوحيد، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة السابعة، ١٩٨٩م، ص ٣.
(٤) سورة النساء (الآيات: ١٦٣-١٦٥).
(٥) محمد نعيم ياسين: الإيمان: أركانه- حقيقته- نواقضه، الأندلس الجديدة للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩م، ص ٩.
(٦) سورة البقرة، الآية ١٧٧.

سأله جبريل عليه السلام عن الإيمان فرد عليه المصطفى صلى الله عليه وسلم قائلاً: "الإيمان: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره"(٧). ويظل الإيمان بالله عز وجل هو الأصل في أركان الإيمان الستة ثم يأتي بعده أركان العقيدة الأخرى، فهي كلها فرع عن الإيمان بالله(٨).

وإذا كان أمنحتب الرابع/ إخناتون هو أول الملوك الداعين إلى الوحدانية في مصر القديمة، فإن هذه الحقيقة التاريخية تدعونا إلى التساؤل عن علامات التوحيد قبل عهده، وبعبارة أخرى كيف وصلت أدلة الإيمان والتوحيد إلى عقل وقلب إخناتون؟ والإجابة عن هذا السؤال تجعلنا نبحث عن أركان الإيمان الستة في عقيدة المصري القديم، وهل آمن بها المصري القديم كلها؟ أم لا؟ فإذا توافرت كلها فهذا يعني أنه كان هناك إيمان وتوحيد قبل عهد إخناتون، وقد أمكن بحث هذه الأركان الستة على النحو التالي:

أولاً: الإيمان بوجود الله عز وجل:

يعتبر الإيمان بوجود الله تعالى هو لب عقيدة التوحيد، وهو أن للكون إلهاً له الخلق والأمر وإليه المصير، هو رب كل شيء ومدبر كل أمر(٩). ويتضمن الإيمان بالله توحيده في ثلاثة: في ربوبيته، وفي ألوهيته، وفي أسمائه وصفاته. وهذا يعني الاعتقاد بتفرد الله عز وجل بالربوبية والألوهية وصفات الكمال وأسماء الجلال، فلا يكون العبد مؤمناً بالله عز وجل حتى يعتقد أن الله رب كل شيء ولا رب غيره، وإله كل شيء ولا إله غيره، وأنه الكامل في صفاته وأسمائه ولا كامل غيره. فإذا كان هذا هو معنى الإيمان بالله الواحد الأحد فإننا نتساءل هل اعتقد المصري القديم في ربوبية وألوهية إله واحد مع إضفائه أسماء وصفات تمنحه الكمال والجلال؟

النوع الأول: توحيد الربوبية:

يعني توحيد الربوبية الاعتقاد بأن الله رب كل شيء ولا رب غيره. فربوبية الله على خلقه تعني تفرده سبحانه في خلقهم وملكهم وتدبير شئونهم فهو خالق الخلق ومالكهم ومحييهم ومميتهم ونافعهم وضارهم، أي الإقرار بأن الله عز وجل هو الفاعل المطلق في الكون بالخلق والتدبير والتغيير والتسيير والزيادة والنقص والإحياء والإماته وغير ذلك من الأفعال(١٠)، كما قال تعالى: "قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ

(٧) رواه الإمامين البخاري ومسلم.
(٨) يوسف القرضاوي: المرجع السابق، ص ٤.
(٩) يوسف القرضاوي: حقيقة التوحيد ، ص ٥.
(١٠) محمد نعيم ياسين: الإيمان: أركانه- حقيقته- نواقضه، ص ١١-١٢.

وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ"[١١].

ويظهر توحيد الربوبية بوضوح في عقيدة المصري القديم في وجود إله خالق قديم برأ الوجود بأربابه وناسه وأرضه وسمائه، وقد صدرت هذه الدعوة بوجود هذا الإله الخالق من الفلاسفة وكبار الكهنة[١٢]، وإن اختلفت أسماء هذا الإله الخالق من مكان لآخر ومن مذهب لآخر في فلسفات نشأة الوجود، فالإله الخالق في مذهب إيونو/عين شمس يختلف عنه في مذهب منف/ ميت رهينة. ففي فكر مدينة إيونو/عين شمس حيث أقدم مذهب معروف في تفسير نشأة الوجود أن أصل الوجود كان كيان عظيم لا نهائي يسمى (نون) وظهر من هذا الكيان إله أزلي هو (آتوم)، وظل هذا الإله متفرداً حتى خلق من نفسه (شو) و(تفنوت) اللذان تزاوجا وتولد عنهما (جب) و(نوت) حيث خلق الأرض والسماء. وقد ظهرت وحدة الربوبية في هذا المذهب تحديداً في إلهها الخالق (آتوم) وفي مرحلة تالية أصبح (رع آتوم) [١٣]. وقد ورد هذا في تسبيح موجه لآتوم من عهد الدولة الوسطى:

آتوم خلقت البشر جميعاً ونوعت هيئـــــــــــــاتهم
ووهبت الحياة لهم جميعاً وفرقت بين ألـــــــوانهم
يا سميعاً لرجاء الأســـــــر يا لطيفاً بمن دعـــــــــــاه[١٤].

أما أصحاب مذهب منف/ ميت رهينة فقد أعلنوا أن (بتاح) هو الرب الخلاق القديم الأزلي، ويعني اسمه "الفتاح" و"البناء" و"الخلاق" أيضاً، وأعلن أصحاب هذا المذهب أن بتاح هو الأصل والجوهر، وأنه القلب واللسان لكل الآلهة جميعاً. فذكروا عن هذا: "وَوفق الناووس الذي تدبره العقل أو (الفؤاد) وخرج باللسان فقدر لكل شيء قدره، انجزت الأمور جميعاً، وأبدعت الفنون جميعها، وتوفر نشاط اليدين وسعي القدمين وخلجات الأعضاء جميعها". وهم بهذا النص وبغيره من النصوص المشابهة له يقتربون مما أكدته الكتب السماوية عن ربوبية الله عز وجل[١٥]: ".....اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ"[١٦].

---

(١١) سورة يونس (الآية ٣١).
(١٢) عبد العزيز صالح: الوحدانية في مصر القديمة، المجلة ٣١ (يوليو ١٩٥٩)، ص ١١.
(١٣) عبد العزيز صالح: فلسفات نشأة الوجود في مصر القديمة، المجلة ٢٦ (فبراير ١٩٥٩)، ص ٣٣-٣٦.
(١٤) عبد العزيز صالح: الشرق الأدنى القديم، الجزء الأول: مصر القديمة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٩، ص٣٦٠.
(١٥) عبد العزيز صالح: فلسفات نشأة الوجود في مصر القديمة، ص ٤٠- ٤١.
(١٦) سورة آل عمران ، الآية رقم (٤٧).

جاء من بعد ذلك أصحاب مذهب واست/ طيبة (الأقصر) الذين أعلنوا أن ملك الأرباب جميعاً هو (آمون) الذي قاموا بتوحيده بآلهة المذاهب القديمة جميعاً، وجعلوه المصدر الأزلي لهم ووصفوه بأنه:

"الإله المقدس، وأنه وجد من تلقاء نفسه، والأرباب جميعاً تتابعوا من بعده، .....
إن رع ذاته اتحد ببدنه، وهو قديم النشأة في إيونو!
وقال الناس عنه إنه تاتنن (رب منف القديم).
وأنه آمون الذي صدر عن نون (روح الكيان المائي القديم).
وأنه مَن هَدَي الخلائق أجمعين.....
وأنه من استكمل ذاته في هيئة آتوم،
وأنه كان معه بدناً فرداً؛ وأنه رب العالمين؛ وأنه بداية الوجود".

ومن هذا النص يتبين كيف عمل أصحاب هذا المذهب على أن يجعلوا آمون (ويعني اسمه الخفي) هو الجوهر الفعال في نشاط مدن إيونو ومنف وأنه يتشكل في كل واحدة منها بما يناسب دوره فيها.

ويتبين من هذه المذاهب دور الربوبية الذي ألبسه كهنة كل مذهب على إلههم الأزلي، فجعلوه أصل الوجود، وأصل خلق البشر، وأنه خلق السماء والأرض، وأنه واهب الحياة وهادي الخلائق أجمعين، وأنه فعل كل ذلك بإرادته. مما يؤكد توحيد الربوبية في عقيدة المصري القديم منذ أقدم العصور.

النوع الثاني: توحيد الألوهية:

يعني توحيد الألوهية إفراد العبادة والخضوع والطاعة المطلقة لله فلا يعبد إلا الله وحده ولا يشرك به شيئاً لا في الأرض ولا في السماء[١٧]، فتصرف جميع أنواع العبادة لله من دعاء وخوف وتوكل واستعانة واستعاذة وغير ذلك[١٨]، وهو ما يمكن إجماله في قوله تعالى: " إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ"[١٩].

وقد بدأ توحيد الألوهية عند المصري القديم من خلال دعوة نادت بوجود إله أكبر يسيطر ويهيمن على الأرض على نحو ما يسيطر الفراعنة على مصر[٢٠]، وإذا كان توحيد الألوهية يمثل الدعاء والعبادة والخوف والإعانة من الله فإنه يمكن التوصل إلى ملامح عبادة المصري القديم للإله الواحد من خلال بعض الأناشيد والصلوات التي كان يبتهل بها للإله الواحد في نصوص الأهرام التي تضمنت صلوات وتضرعات لفائدة الملك المتوفى في الدولة القديمة، كما تضمنت أيضاً شعائر خاصة بالعبادة

---

(١٧) يوسف القرضاوي: حقيقة التوحيد ، ص ٢٣.
(١٨) عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف: التوحيد للناشئة والمبتدئين، الرياض، الطبعة الثالثة، ١٤٢٣هـ،، ص ٢٠.
(١٩) سورة الفاتحة، الآية رقم (٥).
(٢٠)عبد العزيز صالح: الوحدانية في مصر القديمة، ص ١١.

وأناشيد دينية قديمة[٢١]، ثم بعد ذلك في نصوص التوابيت في الدولة الوسطى بحيث أصبحت فائدتها أيضاً للخاصة والوجهاء. ومن الأناشيد الدينية هذا النشيد الموجه لإله الشمس في نصوص الأهرام، نص رقم(٥٧٣):

"استيقظ بسلام، أنت أيها الواحد المطهر، في سلام!
استيقظ بسلام، أنت يا حور الشرقي في سلام!
استيقظ بسلام، أنت يا أيها الروح الشرقي في سلام!
استيقظ بسلام، أنت يا "حور آختي" في سلام!
إنك تنام في سفينة الليل؛
وتستيقظ في سفينة الصباح؛
لأنك أنت الذي تشرق على الآلهة، ولا إله يشرق عليك!" [٢٢].

ويلاحظ من خلال هذا النشيد الذي يرجع لعصور الدولة القديمة أنها تخاطب الإله بصيغة المفرد وليس الجمع، وفي نهاية الأنشودة يناجي الإله بأنه هو الذي يشرق على الآلهة ولا إله يشرق عليه. فهو يقر بوجود إله واحد يهيمن على الأرض ومن ثم يهيمن على سائر المخلوقات، وقد اتجه تيار العقيدة إلى إله الشمس (رع) أكثر من غيره من الأرباب في الدولة القديمة فسبحوا له باعتباره الإله الخالق والإله الأكبر في آن واحد، وأوشكوا أن يعلنوه معبوداً فرداً ويتموا به آية التوحيد لولا مرونة الفكر القديم الذي صرفهم إلى الإيمان بتوحيد الربوبية عوضاً عن توحيد الألوهية[٢٣]. كما كان هناك الكثير من أهل الفكر والمنطق السليم من دعاة التوحيد الذي ظهر فكرهم من خلال تعاليمهم ونصائحهم في أعقاب الدولة القديمة، وقد رأوا أن التمثال شيء والإله المعبود شيء آخر، وأن روح الإله لا يمكن أن تظل حبيسة في تمثاله أو أن تحد بحد، وأنه أياً ما اختلفت التماثيل فإن الرب واحد، وذكر أحدهم وهو يعظ ولده: "(واذكر أن) الإله قد أخفي ذاته بذاته، وأنه يعلم بخصال البشر، وأنه يعلم أنه ذا الأيد أولاً ألا يقاوم إذا كان محسوساً فيما يراه البصر، فاعبد الرب إذاً على سبيله التي ارتضاها، سواء صنعت من حجر أو شكلت من معدن...." [٢٤]. ويشير هذا النص في البداية إلى خفاء ذات الإله، أي أن الأبصار لا تدركه وأن عبادة التمثال الحجري أو المعدني أو غيرهما ما هي إلا وسيلة ليكون الإله مُبَصَّرَاً من جانب متعبديه. إذاً فمن صفات الإله هنا الخفاء وعدم الظهور لأنه أخفى نفسه بذاته بحيث لا يراه سائر البشر. وهو ما يتوافق مع آيات القرآن الكريم

([٢١])جيمس هنري برستيد: فجر الضمير، ترجمة: سليم حسن، مهرجان القراءة للجميع، مكتبة الأسرة، القاهرة، ١٩٩٩م، ص٨٨.

([٢٢]) سليم حسن: الأدب المصري القديم، الجزء الثاني: في الدراما والنثر وفنونه، مطبوعات كتاب اليوم، القاهرة، ١٩٩٠، ص ٨٣.

([٢٣])عبد العزيز صالح: الوحدانية في مصر القديمة، ص ١٣.

([٢٤])عبد العزيز صالح: قصة الدين في مصر القديمة، ص ٥٦.

في قوله تعالى في وصف ذاته العلية: "ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٠٢) لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ "[٢٥].

كان من النصائح والتعاليم في مصر القديمة ما عبر أيضاً عن توحيد الألوهية والحث على التقوى وأداء ما عليه من الواجبات نحو الإله ومنها ما ورد في تعاليم آني التي ترجع في متنها إلى نهاية عصر الهكسوس الدولة القديمة وفي كتابتها إلى الأسرة الثانية والعشرين على النحو التالي: "احتفل بعيد إلهك....وإن الله يغضب على من يستخف به .....وإن الغناء والرقص والبخور لمتعلقة بخدمته، أما تقبله الاحترام فمن حقوقه فقدمها للإله حتى تعظم اسمه". وبعدها بقليل يذكر آني ابنه: "إن بيت الله يمقت الهرج، فصل بقلب محب ولا تجهر بصلاتك[٢٦]، وبذلك ستقضى حوائجك، وسيسمع (الله) ما تقول ويتقبل قربانك[٢٧]"[٢٨].

يتضح بذلك من خلال النصوص الدينية ونصوص الأدب المصري القديم أن توحيد الألوهية كان موجوداً منذ الدولة القديمة وما قبلها حتى وإن كان مخصصاً للملوك في بداية الأمر، ثم انتقل للخاصة والعامة بعد ذلك في عصور لاحقة.

النوع الثالث: توحيد الأسماء والصفات:

يعني الاعتقاد الجازم بأن الله عز وجل متصف بجميع صفات الكمال ومنزه عن جميع صفات النقص، وهو ما تؤمن به الفطرة بداهة فخالق الأشياء لا تماثله الأشياء التي هي من خلقه[٢٩]. وتنقسم صفات الله عز وجل إلى قسمين: صفات ذاتية لازمة أزلاً وأبداً كصفات الحياة والعلم والقدرة والقوة والعزة والجلال و.....الخ؛ وصفات فعلية تتعلق بها مشيئته وقدرته كل وقت وكل آن فهو الفعال لما يريد، وهو الذي يخلق ويتكلم ويدبر الأمور ويمنح الرزق ويحيي ويميت و.....الخ[٣٠]. قال تعالى: "قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ...." [٣١].

([٢٥])سورة الأنعام، الآيتان (١٠٢-١٠٣).

([٢٦]) يمكن مقارنة هذا النص بما ورد في قوله تعالى: " وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا *"- سورة الإسراء (الآية ١١٠).

([٢٧]) ويمكن مقارنة هذا النص أيضاً بما ورد في قوله تعالى: " وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ....."- سورة البقرة (الآية ١٨٦).

([٢٨]) سليم حسن: موسوعة مصر القديمة، الجزء السابع عشر: القصة، الحكم والأمثال، التأملات، الرسائل الأدبية، مهرجان القراءة للجميع، مكتبة الأسرة، ٢٠٠٠م، ص ٢٢١-٢٢٢.

([٢٩])محمد نعيم ياسين، الإيمان: أركانه- حقيقته- نواقضه ، ص ١٩-٢٠.

([٣٠])محمد خليل هراس: شرح العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام أحمد بن تيمية، مراجعة: عبد الرازق عفيفي، تصحيح وتعليق: الشيخ إسماعيل الأنصاري، طبع ونشر الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والإرشاد، الرياض، ١٩٨٢، ص ١٠٥- ١٠٦.

([٣١]) سورة الإسراء، الآية رقم (١١٠).

وقد ورد العديد من الصفات الذاتية التي اتصف بها الإله تابعة للفظ *ntr* ومنها *wr*أي "الإله عظيم"، و *ntr nfr*"الإله جميل"، *ntr ʿnḫ*"الإله حي"، *ntr ʿ3* أي "الإله كبير"[٣٢]، وقد ظهرت هذه الصفات منذ الدولة القديمة، كما عبرت بعض صفات الآلهة عن صفات القدرة والبهاء والجلال ومنها: "نفر حر ن بتاح" أي (جَمَّل وجه بتاح)، و"تحوتي نخت" أي (تحوتي مقتدر) و.....الخ[٣٣]، ويعبر عن إدراك المصري القديم لصفات الإله وأسمائه ومنها ما يعبر عن الجمال والجلال والقدرة والعظمة والتكبير، أما الصفات الفعلية التي اتصف بها الإله فيمكن تلمسها بوضوح من خلال الأناشيد والصلوات المختلفة ومنها هذه الأنشودة الموجهة لآمون رع، الذي هو في الحقيقة ليس إلا إله الشمس القديم القوي "رع حور آختي" و"آتوم" و"خبري" ومن هذه الأنشودة هذه المقتطفات المنتقاه التي ترجع لبداية الدولة الحديثة:

"الحمد لك يا آمون رع رب الكرنك الذي يسيطر على طيبة.....

رب الصدق، ووالد الآلهه الذي خلق بني الإنسان، وسوى الحيوان.

رب كل الكائنات الذي يخلق شجرة الفاكهة والذي من عينه خرجت الأعشاب التي تزود الماشيه.....

هو الذي خلق من هم أسفل ومن هم أعلى.....

والذي يضيء الأرضين، وهوالذي يخترق القبة الزرقاء في سلام.....

يا خالق الآلهة ورافع السماوات وباسط الأرض .....

إنك أنت الواحد الذي خلق كل الكائنات، وإنك الواحد الأحد الذي صنع كل ما يوجد.....

الواحد الأحد الذي لا غيره، المنقطع النظير، المتربع في طيبة".

ونجد في هذه الأنشودة التكرار أن هذا الإله هو الواحد الأحد الخالق لكل الكائنات والسماء والأرض. فهذه الأنشودة توضح الصفات الفعية للإله. وقد ظهر في أناشيد أخناتون الموجهة أولاً للإله الواحد آتون ما يشبه ذلك مما يدل على أن التوحيد كان موجوداً قبل عهد أخناتون، لكنه كان أول ملك يتبناه ديناً رسمياً للبلاد، ويرفض الأفكار الدينية الأخرى[٣٤].

ومن خلال هذا الركن الأول من أركان الإيمان الذي يتناول الإيمان بالله الواحد عز وجل من خلال توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية وتوحيد أسماء وصفات الإله عند المصري القديم يتبين كيف آمن المصري القديم بالإله الواحد.

ثانياً: الإيمان باليوم الآخر:

يعني الإيمان باليوم الآخر التصديق الجازم بوقوع هذا اليوم، فيؤمن كل واحد منا بأن الله تعالى يبعث الناس من القبور ليحاسبهم ويجازيهم على أعمالهم إما جنة وإما

---

(٣٢)Wb II 361,1-10.

(٣٣)عبد العزيز صالح: الأسرة المصرية في عصورها القديمة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٨، ص ٩٠.

(٣٤)سليم حسن: الأدب المصري القديم، الجزء الثاني: في الدراما والنثر وفنونه، ص ٩٧- ١٠٣.

نار[٣٥]، وهذا يتطلب الإيمان بكل ما أخبر به الله عز وجل في كتابه الكريم وأخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم مما يكون بعد الموت من البعث والحشر والحساب والميزان وما أعده الله عز وجل للأبرار والفجار بعد ذلك[٣٦]. والإيمان باليوم الآخر يتضمن ثلاثة أمور:

١-الإيمان بالبعث والحشر:

وهو الإيمان بإحياء الموتى من قبورهم وإعادة الأرواح إلى أجسادهم، فيقوم الناس لرب العالمين حفاة عراة ليستعدوا للحساب بعد ذلك[٣٧].

وقد آمن المصري القديم منذ عصور ما قبل الأسرات بحياة أخرى بعد الموت، بل إنه كان يعتبر أن المتوفى في قبره ليس ميتاً ولكنه يحيا حياة أخرى يحتاج فيها للطعام والشراب، فكان يوضع بجانبه في القبر الطعام والشراب وهو ما يساوي حياة البرزخ التي يموت فيها الجسد ويبلى، أما الروح فتصعد إلى السماء لأنها لا تموت. كما أن مناظر الحياة اليومية داخل المقابر منذ الدولة القديمة، والاعتقاد بأن السحر يبعث الحياة في هذه المناظر، ويجدد الطعام داخل المقابر يؤكد فكرة البعث بعد الموت. ومن إيمانهم بفكرة البعث نشأ تحنيط الموتى لاعتقادهم أن الجسد إذا حفظ من الفناء فبوسعه أن يرحل في مناطق واسعة في العالم الآخر[٣٨]. كما أن الغاية المهمة التي دونت من أجلها نصوص الأهرام هي سعادة الملك في الحياة الآخرة. فهي تضمن له كيفية التغلب على الصعوبات التي تواجهه في العالم الآخر. ومنها عملية تطهير جسد المتوفى قبل الدفن وهو ما يقابل غسل الميت في الشريعة الإسلامية[٣٩].

وتعكس النصوص المصرية القديمة أهمية التذكير باليوم الآخر والبعث بعد الموت فتذكر التعاليم الموجهة للملك مري كارع: "إن المرء ليبعث بعد الموت، وتوضع أعماله بجانبه أكواما وما يبتغيه المرء هو الخلود هناك (في العالم الآخر)"[٤٠]. أما تعاليم آني فتوضح أهمية اتخاذ الإنسان لنفسه مقبرة يتم الإعداد لها في حياته الدنيا: "أعد لنفسك مأوى جميلاً في وادي الصحراء، وهي الحفرة التي ستواري جثمانك، فاصنعه أمام عينيك في مشاغلك ...مثل السلف العظام الراقدين في مدافنهم (؟).....والموت يأتي ويختطف الطفل الذي

([٣٥]) عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف: التوحيد للناشئة والمبتدئين، ص ٢٦.

([٣٦])محمد نعيم ياسين: الإيمان: أركانه- حقيقته- نواقضه، ٦٧.

([٣٧]) ابن تيميه: شرح العقيدة الواسطية، تصحيح وتعليق: إسماعيل الأنصاري، الرياض، ١٩٨٢م، ص ١٤٢.

([٣٨])جورج بوزنر: معجم الحضارة المصرية القديمة، ترجمة: أمين سلامة، مهرجان القراءة للجميع، مكتبة الأسرة، القاهرة، ١٩٩٦م، ص ٣١١-٣١٢.

([٣٩]) جيمس هنري برستيد: فجر الضمير، ترجمة: سليم حسن، مهرجان القراءة للجميع، مكتبة الأسرة، القاهرة، ١٩٩٩م، ص٨٦، ص ٩١.

([٤٠]) محرم كمال: الحكم والأمثال والنصائح عند المصريين القدماء، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مهرجان القراءة للجميع، مكتبة الأسرة، القاهرة، ١٩٩٨م، ص ٧٣.

لا يزال يرضع ثدي أمه، كما يختطف الرجل عندما يصبح مسناً"[٤١]. ومن خلال هذه النصوص وما صاحبها من كل مظاهر الدفن يتبين كيف آمن المصري القديم بالبعث والحشر بعد الموت.

٢- الإيمان بالحساب والميزان:

يعني الإيمان بالحساب والميزان أن يؤمن الإنسان بأن الله عز وجل سيحاسب الخلائق على أعمالهم في الحياة الدنيا، فتوضع الأعمال في ميزان عظيم، فتوضع الحسنات في كفة والسيئات في الكفة الأخرى، فمن رجحت حسناته فهو من أهل الجنة، ومن رجحت سيئاته فهو من أهل النار[٤٢]. ويعتبر الحساب والميزان من أهم وأوضح ما ذكر في عقيدة المصري القديم على مر العصور؛ حيث كان لا بد للميت أن يعترف إنكارياً بأنه لم يفعل شيئاً يبغضه الإله ومثال ذلك ما ورد في التعاليم الموجهة للملك مريكارع من عصر الأسرة العاشرة: "لم يرتكب أية خطيئة ضد الناس، وأنه لم يفعل ما يمقته الإله، وأنه لم يترك أحداً يتضور جوعاً، ولم يتسبب في شقاء أي إنسان، ولم يغتصب الطعام، ولم يسرق، ولم ينطق بالكذب، ولم يغش، ولم يسب، ولم يتكبر، ولم يرتكب الزنا، ولم يعذب الأرملة، ولم يكذب أمام القضاة ....وأنه طاهر طاهر طاهر". وعلى الجانب الآخر فإنه كان على الميت أن يعلن أفعالاً إيجابية تعضد موقفه عند المحاكمة ومنها ما ورد بنفس التعاليم: "قد فعل ما يقول به الناس، وأرضى الإله بما يرغب فيه، وأعطى الجائع خبزاً والصادي ماء، والعريان لباساً، وقدم قرباناً مقدساً للإله، وقرباناً من الطعام للموتى"[٤٣].

ويعتبر من أسمى المعتقدات عن الآخرة في العقيدة المصرية القديمة هو الحساب أمام محكمة الموتى وسرعة التوبة والرجوع عن الذنب وأن مدة الحياة في الآخرة تشعر الإنسان أنه لم يمض فيها إلا ساعة، وقد بد هذا واضحاً جلياً في تعاليم مري كارع: "إنك تعلم أن محكمة القضاة الذين يحاسبون المذنب لا يرحمون الشقي عند مقاضاته، وتسوء العاقبة إذا كان المتهم هو الواحد العاقل (تحوت الذي يدير المحكمة)، ولا تضمن ثقتك في طول العمر لأنهم (القضاة) ينظرون إلى مدة الحياة كأنها ساعة واحدة[٤٤]، ولكن الإنسان يبعث ثانية بعد الموت وتوضع أعماله بجانب الجبل لأن الخلود مثواه هناك (الآخرة)....."[٤٥].

ووضحت نصوص التوابيت في عصر لاحق بعد ذلك الشعور بالمسئولية الخلقية في العالم الآخر حيث أنها تعمقت تعمقاً شديداً في هذا العصر، فيقول أحدهم للمتوفى: "إن أبواب السماء مفتوحة لجمالك، إنك تصعد.....وذنبك مغفور، وظلمك قد محي بأيدي

---

(٤١) سليم حسن: موسوعة مصر القديمة، الجزء السابع عشر، ص ٢٢٣.

(٤٢) عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف: التوحيد للناشئة والمبتدئين، ص ٢٧.

(٤٣) محرم كمال: الحكم والأمثال والنصائح عند المصريين القدماء، ص ١٥-١٦.

(٤٤) ويمكن مقارنة هذا النص مع قوله تعالى: "وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ". انظر: سورة يونس، الآية (٤٥).

(٤٥) سليم حسن: موسوعة مصر القديمة، الجزء السابع عشر، ص ١٩٤.

أولئك الذين يَزنون بالموازين يوم الحساب"[٤٦]. أما كتاب الموتى فقد عكست نصوصه منذ بداية الدولة الحديثة المراحل التي يمر بها المتوفى في العالم الآخر، وكلها وسائل تساعده على تخطي العقبات المتعددة التي تقابله في العالم الآخر ومواجهة الأخطار، كما أنها تجعل قلبه واعياً صافياً حتى ينتصر عند الميزان، وحتى لا يموت مرة أخرى[٤٧].

إذاً فمن علامات الإيمان باليوم الآخر هو الحساب والميزان حيث تتم إجراءات المحاكمة أمام أوزيريس فيوضع الميزان ثم يوضع قلب الميت باعتباره يضم أفعاله في إحدى كفتي الميزان، بينما يوضع في الكفة الأخرى ماعت (ريشة العدالة) التي تمثل العدالة والنظام والالتزام، فإذا تعادلت الكفتان فإن أوزيريس يقبله في مملكته، وإلا فإنه يلقي بقلبه ليلتهمه الوحش الكاسر الرابض في انتظار حكم الميزان، ولا شك أن هذا الاعتقاد يتماثل مع ما ورد في الكتب السماوية[٤٨].

٣- الإيمان بالجنة والنار:

الجنة هي دار النعيم المقيم التي أعدها الله للمؤمنين والمتقين والأبرار، وبها جميع أنواع المأكولات والمشروبات والملبوسات وفيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. أما النار فهي دار العذاب المقيم التي أعدت للعصاة والكافرين[٤٩] قال تعالى: "فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ "[٥٠]. وقد اعتقد المصري القديم في نفس هذا المصير أيضاً؛ فالصالحون يحيون حياة طيبة في حقول الإيارو- وهي نفس معنى جنات النعيم[٥١]- أما الخاطئون فمصيرهم أن ينشق العالم ويسقطوا في الأرض ولا يفك أسرهم أي أنه لا تصعد روحهم إلى السماء، ثم في العالم الآخر توجد منطقة مليئة بالنيران وفي وسطها توجد بحيرة النار ذات الأمواج الملتهبة، وهي

([٤٦])جيمس هنري برستيد: فجر الضمير، ص ٢٦٧.

([٤٧])جورج بوزنر: معجم الحضارة المصرية القديمة، ص ٣١١-٣١٢.

([٤٨])ويمكن مقارنة هذا النص مع قوله تعالى:" وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ"، انظر سورة الأنبياء، الآية (٤٧).

([٤٩])سورة القارعة، الآيات (٦-٩).

([٥٠])سورة المؤمنون، الآيتان (١٠٢-١٠٣) .

([٥١]) وقد ورد وصف للجنة في كتاب نوت في الأسرة التاسعة عشر أن مملكة الموتى المباركين لا تعرف حدوداً للجنوب والشمال والشرق والغرب. أليس هذا يعني أنها "...وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ"، انظر: إريك هورنونج: وادي الملوك أفق الأبدية: العالم الآخر لدى قدماء المصريين، ترجمة: محمد العزب موسى، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٦م، ص ١٢-١٦؛ سورة آل عمران، الآية (١٣٣).

مخصصة لهؤلاء المخطئين الذين تجرمهم المحاكمة.وهنا يمكن مقارنة ما يتعرض له المذنبون بما ذكر تفصيلاً في آيات الذكر الحكيم[٥٢].

ومن خلال هذه الدرجات الثلاث للإيمان باليوم الآخر وما يتضمنه من الإيمان بالبعث والنشور ثم الحساب والميزان ثم المصير المحتوم إما جنة؟ وإما نار؟ يتبين لنا كيف تحقق الإيمان باليوم الآخر عند المصري القديم. ويبدو بوضوح أن مراحل الإيمان باليوم الآخر تتشابه مع ما ورد بالكتب السماوية وما ورد في آيات القرآن الكريم بدقة بالغة. ويظل الإيمان باليوم الآخر من أعظم عقائد المصري القديم لأنه يوضح مدى حاجة الإنسان إلى قيم خلقية يتصف بها في الحياة الآخرة، وهي نقطة تحول من الارتكان على العوامل الظاهرية الخارجة عن شخصية الميت إلى الاعتماد على القيم النفسية الباطنة، كما أن مراحل الإيمان باليوم الآخر من أهم أركان الإيمان التي تدعم جوانب الخير وعمله في نفس الإيمان وتثنيه بالمثل عن جوانب الشر وكسب السيئات.

ثالثاً: الإيمان بالقدر:

يعتبر الإيمان بالقدر خيره وشره هو أحد الأركان الستة التي يدور عليها فلك الإيمان، وقد اختلفت عبارات العلماء حول تعريف القضاء والقدر وأيهما أسبق؟ وهناك من عرفهما تعريفاً واحداً كالتالي: "هو النظام المحكم الذي وضعه الله عز وجل لهذا الوجود والقوانين العامة والسنن التي ربط بها الأسباب بمسبباتها". والمقصود بالإيمان بالقدر: "هو علم الله القديم والإيمان بمشيئة الله النافذة وقدرته الشاملة"[٥٣]، ويكون الإيمان بالقدر على درجتين: الدرجة الأولى: هي أن الله علم بعلمه القديم الموصوف به أزلاً أنه علم جميع أحوالهم من الطاعات والمعاصي والأرزاق والآجال، فكل ما يوجد من أعيان وأوصاف ويقع من أفعال وأحداث فهو مطابق لما علمه الله عز وجل أزلاً. ثم كتب كل ذلك وسجله في اللوح المحفوظ، قال تعالى: "أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ"[٥٤]. أما الدرجة الثانية: فهي مشيئة الله النافذة وقدرته الشاملة وهو الإيمان بأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، والإيمان بأن جميع الأشياء واقعة بقدرة الله تعالى وأنها مخلوقة له لا خالق سواه[٥٥].

([٥٢])ومنها ما ورد في قوله تعالى: "إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ (٤٠) لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ"،انظر سورة الأعراف، الآيات (٤٠-٤١).

([٥٣])محمد نعيم ياسين: الإيمان: أركانه- حقيقته- نواقضه، ص ١١٣-١١٤.

([٥٤])سورة الحج، الآية (٧٠).

([٥٥])ابن تيميه: شرح العقيدة الواسطية، ص١٥٢-١٥٦.

وقد آمن المصري القديم بالقدر منذ عصور ما قبل التاريخ، إلا أنه كان مرتبطاً بالملك في بداية الأمر، والذي عليه أن ينفذ العدالة (ماعت) التي هي أساس النظام الكوني الذي وضعه الإله. وفي مرحلة تالية يتبين من خلال مفهوم القضاء والقدر عند المصري القديم أن الطفل عند مولده يوضع بداخله شخصية بمساعدة قرينه (كا)، في حين يقوم أحد الآلهة بتاح أو تحوت أو خنوم أو مسخنت بتحديد عمره وصحته وعمله وقوته وموته وهل سيكون قدره في الحياة طيباً؟ أي هل سيكون شخصاً سعيداً؟ أم لا؟ فإذا كان هذا القدر طيب أطلق عليه *rnnt*، وأن هذه الأقدار والأحداث مدونة في كتاب، وقد ورد في النصوص المصرية القديمة ما يعكس هذه المفاهيم من الإيمان بالقدر، ويتفق مع الدرجة الأولى من الإيمان بالقدر[٥٦] ومثال ذلك ما ورد في بداية قصة قدر الأمير: "وفي نهاية شهور الولادة، ولد طفل ذكر، وعندما حضرت الحتحورات لكي يقدرن له قدره، قلن: فليمت بسبب التمساح، أو الثعبان، أو حتى الكلب!!...." [٥٧]، أما في تعاليم آمون إم أوبت/أمنموبي فقد ورد معنى التسليم بالقدر في الفصل السابع على النحو التالي:

"لا تندفعن بقلبك وراء الثروة.
إذ لا يمكن تجاهل "شاي" و"رننت" (إلهي القدر).
ولا تضعن أفكارك في أمور في الخارج.
فكل إنسان مقدر له ساعته (أي أن خيره موكل بحظه)" [٥٨].

اعتقد المصري القديم أيضاً أن الذات الإلهية هي التي تمنح الإنسان التوفيق في العمل أو تمنعه عنه كما وضحت ذلك تعاليم آمون إم أوبت، كما أن الذات الإلهية طبقاً لاختيار الإله يمكن أن تطيل عمر الإنسان أو أن تغير مجرى قدراً مذكوراً أو منفراً كتب على الإنسان فيتم تغييره إلى ما هو طيب ومثمر، أي أن الإله إذا أراد أن يغير قدراً غيره. فالدعاء يرد القدر[٥٩]. وهو ما يمكن مقارنته بما ورد في الحديث الشريف: "الدعاء والقدر يعتلجان إلى يوم القيامة".

---

(٥٦) كما أنه يتفق مع ما ورد في الحديث الصحيح عن أبي عبد الرحمن عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه قال حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق: "إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ثم يكون علقة ثم يكون مضغة مثل ذلك. ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات: يكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد....."، رواه البخاري ومسلم؛ الحديث الرابع من الأحاديث النووية.

(٥٧) جاستون ماسبيرو: حكايات شعبية فرعونية، ترجمة: فاطمة عبد الله محمود، سلسلة مصريات، العدد الثاني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٨م، ص ١٠٣ .

(٥٨) سليم حسن: موسوعة مصر القديمة، الجزء السابع عشر، ص ٢٤٣.

(59) Shirun, I.,"Schick soll", LA V,598-599.

كما اعتقد المصري القديم أيضاً أن الإنسان يمارس أعماله فقط من خلال رضاء الإله ومشيئته كما ذكر أحد الحكماء: "الإنسان ينطق بالكلمة أما الأمر فللرب"، وكان في مفهومهم أيضاً أن الإنسان قادر أيضاً على تغيير قدره من خلال أفعاله إذا أراد الإله له ذلك[٦٠]، أي أنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، كما أن الإله هو الذي قدر الأمر والفعل للإنسان وهو ما يوافق الدرجة الثانية من الإيمان بالقدر. وبذلك يتبين إيمان المصري القديم بالقدر.

رابعاً: الإيمان بالملائكة:

يعتبر الإيمان بالملائكة أحد أركان الإيمان الستة؛ وهو يتضمن أربعة أمور هي: الإيمان بوجودهم، والإيمان بمن علمنا منهم وما لم نعلم، والإيمان بما علمنا من صفاتهم، وأخيراً الإيمان بأعمالهم كتعبدهم لله عز وجل وتسبيحهم له[٦١].وتجمع النصوص المختلفة على أن الملائكة مخلوقات نورانية ليس لها جسم مادي يدرك بالحواس الإنسانية وأنهم ليسوا كالبشر فلا يأكلون ولا يشربون ولا ينامون ولا يتزاوجون، مطهرون من الشهوات المختلفة، ومنزهون عن الآثام والخطايا ولا يتصفون بشيء من الصفات المادية التي يتصف بها بنو آدم، إلا أن لهم القدرة على أن يتمثلوا بصور البشر، كما أن لهم أعمالاً أخرى في حياة الإنسان الإرادية، هدفها كما حدده الله تعالى لهم هو هداية البشر وإسعادهم ومساعدتهم على عبادة الله عز وجل واختيار الهدى والصلاح واجتناب الفساد والضلال[٦٢]. وكما أخبرنا الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم في الحديث الشريف عن عائشة رضي الله عنها: "خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم"[٦٣].

فإذا كانت هذه هي صفات الملائكة والإيمان بهم أحد أركان الإيمان، فهل عرف المصري القديم الملائكة؟ أو أدرك بعض صفاتهم وخصائصهم؟ بالبحث في قاموس برلين فإنه لا يوجد من بين المفردات الهيروغليفية ما يعبر عن "مَلَك" أو "ملائكة"، في حين أن آيات القرآن الكريم المعجز البليغ تشير إلى ذلك بوضوح فيما يرجع لما قبل عهد إخناتون بفترة طويلة على النحو التالي: "وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٣٠) فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ

---

(٦٠)ياروسلاف تشيرني: الديانة المصرية القديمة، سلسلة الثقافة الأثرية والتاريخية، مشروع المائة كتاب (٦)، هيئة الآثار المصرية، ١٩٨٧، ص ٦٩-٧١.

(٦١) عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف: التوحيد للناشئة والمبتدئين، ص ٥٤-٥٥.

(٦٢) محمد نعيم ياسين: الإيمان: أركانه- حقيقته- نواقضه، ص ٣٣-٣٨.

(٦٣) أبو زكريا يحيى الدمشقي: رياض الصالحين، دار السلام للطباعة والنشر، القاهرة، الطبعة الثانية، ٢٠٠٤م، ص ٢٧٦.

أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ(٣١) قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ..... "[٦٤]، وبتأمل هذه الآيات الشريفة يمكن استنتاج الآتي خاصة وأنه من المعلوم ومن المؤكد أن هذه القصة حدثت على أرض مصر:

١- لما رأى نسوة المدينة نبي الله يوسف عليه السلام وقد أوتي شطر الجمال قلن: "حَاشَ لِلَّهِ " وهي كلمة تنزيه تقال تعبيراً عن الدهشة بصنع الله عز وجل[٦٥].

٢- لما دهش النسوة وأعجبوا وذهلوا وفتنوا بجماله عليه السلام نفوا عنه جنسه البشري وقلن: "مَا هَذَا بَشَرًا ".

٣- زاد النسوة على نفيهن عنه جنسه البشري بأن اعتبرنه من الملائكة فقلن: "إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ ". مما يعني ويؤكد علمهن ومعرفتهن بالملائكة.

٤- ملاحظة الدقة البليغة في الآية الكريمة التي عبرت عن تأكيد النسوة ليوسف عليه السلام بأنه ملك فاستخدمن النفي والاستثناء في قولهن: " إِنْ هَذَا إِلَّا ...".

٥- وصفهن لشدة جماله عليه السلام بال(ملك) تحديداً دون غيره من سائر المخلوقات تعني إدراكهن وعلمهن بأن الملائكة مخلوقات نورانية.

٦- لقد أضافت النسوة صفة (كريم) بعد (ملك) للتأكيد على أنه ليس ملكاً عادياً ولكنه من الملائكة المقربين مثلاً. أو من الملائكة ذات الدرجات العلا.

٧- لما قصت امرأة العزيز على نسوة المدينة أن نبي الله يوسف عليه السلام لم يستجب لها لما راودته عن نفسها وأنه قد استعصم ولم يستجب لها بشدة، دفعهم هذا الاستعصام من جانبه لوصفه بالملك، مما يعني إدراكهم أن الملائكة ليس لديهم شهوة غريزية، وأنه بذلك عليه السلام يمتلك عصمة الملائكة.

٨- وصف نسوة المدينة لنبي الله يوسف عليه السلام بالملك تعني علمهن أنه من خصائص الملائكة أن يتشكلوا في هيئة الرجال.

ووفقاً لما ذكره العديد من المؤرخين وأصحاب التفاسير فإن هذه القصة تؤرخ أحداثها كاملة في عصر الهكسوس أي فيما يسبق عهد إخناتون ببضعة قرون[٦٦] مما يؤكد إيمان المصري القديم ومعرفته بالملائكة بل وإدراكه بالعديد أيضاً من خصائصهم مثل: أنهم مخلوقون من النور، وأن الملائكة درجات، وأنهم معصومون من الخطايا

([٦٤]) سورة يوسف، الآيات (٣٠-٣٢).

([٦٥]) سيد قطب: في ظلال القرآن، مكتبة الشروق، القاهرة، الطبعة الخامسة والثلاثون، ٢٠٠٥م، ص ١٩٨٤.

([٦٦]) للمزيد من الدراسة عن الفترة التاريخية التي شهدت أحداث قصة يوسف عليه السلام على أرض مصر: انظر: محمد بيومي مهران: بنو إسرائيل، الجزء الأول: منذ عصر إبراهيم عليه السلام وحتى عصر موسى عليهما السلام، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ٢٠١٠م، ص ٢٢٩- ٢٣٧.

والآثام، وأنهم معصومون من شهوات بني آدم، وأنهم يتشكلون بهيئة الرجال، وهذا مما يدل على إيمان المصري القديم الملائكة وهي أحد أركان الإيمان الستة.

خامساً: الإيمان بالرسل والأنبياء:

يعني الإيمان بالرسل والأنبياء التصديق الجازم بأن الله عز وجل بعث في كل أمة رسولاً منهم يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وأن الرسل كلهم صادقون مصدقون، أتقياء أمناء، هداة مهتدون، وأنهم بلغوا جميع ما أرسلهم الله به فلم يكتموا ولم يغيروا[٦٧] "فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ"[٦٨]. وقصت علينا آيات القرآن الكريم العديد من قصص الأنبياء حتى نعتبر منها على مر العصور، وأكد أيضاً على أن الله عز وجل قد بعث في كل أمة رسولاً، قال تعالى: "إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤) وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ"[٦٩]، والنفي والاستثناء في الآية الكريمة (إن....إلا) يأتي بغرض التوكيد، وأكد الحق عز وجل لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم الآتي:"وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ....." [٧٠]. إذن فإرسال الأنبياء والرسل لكل الأمم مؤكد بنص القرآن الكريم، وقد ورد عدد كل منهم وبعض صفاتهم مفصلاً في السنة النبوية الشريفة[٧١].

ولكن هل آمن المصري القديم بوجود الرسل والأنبياء؟ أو سجل شيئاً عنهم حتى لو لم يؤمن بأحد منهم؟ والإجابة: أن المصري القديم لم يسجل لنا نصاً نعرفه حتى الآن يمكن أن يوجد به لفظ (رسول) أو (نبي) لكن المشابهات في التصورات التي تلفت النظر بين العقيدة المصرية القديمة وما ورد في الكتب السماوية لا يمكن أن يأتي

---

(٦٧)عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف: التوحيد للناشئة والمبتدئين، ص٦٦.

(٦٨) سورة النحل، الآية (٣٥).

(٦٩) سورة فاطر، الآيتان (٢٤-٢٥).

(٧٠) سورة غافر، الآية (٧٨).

(٧١) ورد في حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه حين سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم: "قلت: يا رسول الله كم الأنبياء؟ قال مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا، قلت: يا رسول الله كم الرسول منهم؟ قال: ثلاثمائة وثلاثة عشر، جم غفير، قلت: يا رسول الله من كان أولهم؟ قال: آدم، قلت يا رسول الله: نبي مرسل؟ قال: نعم، خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه، ثم سواه قبلا، ثم قال: يا أبا ذر أربعة سريانيون: آدم وشيث ونوح وخنوخ وهو إدريس: وهو أول من خط بالقلم، وأربعة من العرب: هود وصالح وشعيب ونبيك يا أبا ذر، وأول نبي من بني إسرائيل: موسى وآخرهم عيسى وأول النبيين آدم وآخرهم نبيك"، رواه ابن حبان في صحيحه.

بطريق المصادفة، لكنها تعني أن مصدرهما واحدٌ وأن الوحي الإلهي كان متصلاً بين السماء والأرض(٧٢). وما ورد في آيات الذكر الحكيم في سورة غافر في المناظرة التي تمت بين فرعون وبين مؤمن آل بيته تؤكد ذلك: "وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ*"(٧٣). وتوضح الآية الكريمة بما لا يدع مجالاً للشك أن نبي الله يوسف عليه السلام قد جاء المصريين بالبينات والدليل على وحدانية الله عز وجل، وأنه قد بعث فيهم نبياً وأنهم ظنوا أنه بوفاته عليه السلام لن يبعث الله لهم نبياً آخر أو رسولاً آخر، وقد تأكدت دعوته لهم أثناء وجوده في السجن على النحو التالي: "يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ*"(٧٤). إذن فوجود الأنبياء مؤكد أيضاً بآيات القرآن الكريم قبل عهد إخناتون في فترة وجود الهكسوس على الأقل. وأنه كان من بين المصريين من آمن بالله الواحد الأحد حتى وصلت هذه الوحدانية إلى إخناتون الذي تبناها كأول ملك في مصر القديمة يتبنى الدعوة إلى توحيد الله عز وجل.

سادساً: الإيمان بالكتب السماوية:

يعني الإيمان بالكتب السماوية التصديق الجازم بأن الله عز وجل أنزل كتباً على رسله إلى عباده، وأن هذه الكتب كلام الله تعالى تكلم بها حقيقة كما يليق به سبحانه، وأن هذه الكتب فيها الحق والنور والهدى للناس في الدارين(٧٥). وقد أنزل الله عز وجل على رسله العديد من الكتب السماوية التي حدثنا عنها القرآن الكريم، قال تعالى: "كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ....."(٧٦)، وإذا كانت هذه الكتب قد نزلت بالحق لتحكم بين الناس لما تتضمنه من نور وهدى، فإنه يتبين من آيات القرآن الكريم أن نبي الله يوسف عليه السلام جاء بالبينات للمصريين كما ورد في الفقرة السابقة. كما أن التعاليم السامية

(٧٢) إريك هورنونج: ديانة مصر الفرعونية: الوحدانية والتعدد، ص ١٢.
(٧٣) سورة غافر، الآية ٣٤.
(٧٤) سورة يوسف، الآيتان (٣٩-٤٠).
(٧٥)عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف: التوحيد للناشئة والمبتدئين، ص59 .
(٧٦) سورة البقرة، الآية (٢١٣).

والنصائح الراقية التي تضمنتها نصوص الأدب والحكمة في مصر القديمة تدل على تأثر المصري القديم بما ورد في هذه النصوص السماوية[٧٧].

الخاتمة

مما لا شك فيه أن الوحدانية المطلقة لله عز وجل هي أسمى ما يمكن أن يتواجد في أي مجتمع بشري. وأن أي حضارة عظيمة لا تنهض دون الإيمان بالله تعالى. لأن الإنسان في ظل الوحدانية يتمتع بالعبودية الكاملة لله عز وجل دون الخضوع والذل لغيره من سائر المخلوقات، ومن ثم يتهيأ له العمل والفكر بالحرية والإبداع التي يترتب عليهما النهوض الحضاري. ومن خلال ما سبق تناوله من أركان الإيمان الستة التي تمثل جوهر عقيدة التوحيد فإنه يمكن تلمس هذه الأركان الستة في عقيدة المصري القديم. فقد تبين توحيد الربوبية الذي ألبسه كهنة كل مذهب من مذاهب نشأة الوجوه على إلههم الأزلي، فجعلوه أصل الوجود، وأصل خلق البشر، وأنه خلق السماء والأرض، وأنه واهب الحياة وهادي الخلائق أجمعين، وأنه فعل كل ذلك بإرادته. كما يتضح أيضاً من خلال النصوص الدينية ونصوص الأدب المصري القديم أن توحيد الألوهية كان موجوداً منذ الدولة القديمة وما قبلها. أما توحيد أسماء وصفات الإله فظهر من خلال الأناشيد والصلوات المختلفة للإله معبراً عن إدراك المصري القديم لصفاته وأسمائه ومنها ما يعبر عن الجمال والجلال والقدرة والعظمة والتكبير للإله. أما عن الإيمان باليوم الآخر في عقيدة المصري القديم فقد ظهر بوضوح في كل مظاهر الدفن وما صاحبها من عقائد أكدتها النصوص المصرية القديمة حيث تبين كيف آمن المصري القديم بالبعث والحشر بعد الموت ثم بالحساب والميزان وأخيراً بالمصير المحتوم إما جنة وإما نار.

تبين في عقيدة المصري القديم أيضاً الإيمان بالقدر وأن الطفل عند مولده يوضع بداخله شخصية بمساعدة قرينه (كا)، في حين يقوم أحد الآلهة بتاح أو تحوت أو خنوم أو مسخنت بتحديد عمره وصحته وعمله وقوته وموته وهل سيكون شقياً؟ أم سعيداً؟ و أن الإنسان قادرٌ أيضاً على تغيير قدره من خلال أفعاله إذا أراد الإله له ذلك. أما عن إيمان المصري القديم ومعرفته بالملائكة فهو ثابت ومؤكد بآيات القرآن الكريم في سورة يوسف ويمكن استنتاج منه إيمانهم بالعديد من صفات الملائكة أيضاً. أما عن إيمان المصري القديم بالأنبياء والرسل والكتب فثابت ومؤكد أيضاً من القرآن الكريم بسورة غافر أن نبي الله يوسف عليه السلام قد جاء المصريين بالبينات والدليل على وحدانية الله عز وجل فيما قبل عهد إخناتون – عصر الهكسوس– بعدة قرون، كما أن التعاليم السامية والنصائح الراقية التي تضمنتها نصوص الأدب المصري القديم تعكس تأثر المصري القديم بما ورد في الكتب السماوية.

([٧٧]) وهو أمر يحتاج إلى المزيد من الدراسة.

ومن كل ما سبق يمكن التأكيد على وجود ملامح التوحيد في مصر القديمة قبل عهد إخناتون، أي أن العقيدة المصرية القديمة بدأت في جوهرها توحيدية مؤمنة بالله عز وجل ثم تحولت على مر العصور إلى التعددية بمساعدة العديد من العوامل منها مرونة الفكر المصري القديم التي سمحت بهذا التعدد بالإضافة إلى الدور الذي لعبه كهنة كل إله في هذا المجال بتشجيع الملوك أنفسهم لذلك، هذا إلى جانب فكرة وجود إله سياسي للدولة في كل عصر من العصور. حتى كانت الصحوة الكبرى مرة أخرى على يد إخناتون.